مجلة أبعاد مجلد 13، العدد 01 (خ)، 2026
ISSN: 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

هايدن وايت قارئا لهردر
من الكليات العينية إلى الاستعارة العضوية

Hayden White, a Reader of Herder: From Concrete Universals to the Organic Metaphor

محمد العيد القلي
* Mohamed laid El kolli
mohamedlaiid5@gmail.com
جامعة وهران 2 محمد بن احمد-(الجزائر)
وحدة البحث في علوم الإنسان للدراسات الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية
فلسفة

عبد الله عبد اللاوي
Abedallah Abedellaoui
abdellaoui.abdellah@univ-oran2.dz
جامعة وهران 2 محمد بن احمد-(الجزائر)
وحدة البحث في علوم الإنسان للدراسات الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية
فلسفة

تاريخ الإرسال:2026-01-29 | تاريخ القبول: 2026-05-28 | تاريخ النشر: 2026-06-10

****

ملخص:

هل التاريخ سجل لما حدث فعلا؟ أم هو معركة بلاغية لفرض المعنى على ما حدث؟ تستنطق هذه الدراسة منهج هايدن وايت في "ما وراء التاريخ" الذي يحاول اقتفاء أثر التحول الدرامي لخطاب هردر؛ الذي انطلق في رحلة فلسفية ثورية لمساءلة برودة "ميكانيكا التنوير" وتحرير الحدث التاريخي من جفاف السببية لينتهي به المطاف سجينا داخل "نباتية" قدرية لا تقل صرامة. تكشف الدراسة عن كيفية توظيف المجاز "الاستعارة" والحبكة "الكوميديا" لإنتاج سرديات الواقعية التفاؤلية التي تمتص الصراعات البنيوية وتصهرها في بوتقة "الانسجام القسري"، محولة التاريخ من ساحة للمساءلة والفاعلية البشرية إلى أيقونة للتقديس والشرعنة.

الكلمات المفتاحية: تاريخ؛ سرد؛ مجاز؛ حبكة؛ أيديولوجيا؛ تهكم

Abstract:

Is history a record of what actually happened, or is it a rhetorical battle to impose meaning upon what transpired? This study interrogates Hayden White's approach in *Metahistory*, which attempts to trace the dramatic transformation in Herder's discourse. Herder embarked on a revolutionary philosophical journey to challenge the coldness of "Enlightenment

* الباحث المُرسل: mohamedlaiid5@gmail.com

mechanics" and liberate the historical event from the dryness of causality, only to ultimately find himself imprisoned within a fatalistic "organicism" (vegetality) that is no less rigid. The study reveals how trope (metaphor) and emplotment (comedy) are employed to produce narratives of optimistic realism that absorb structural conflicts and melt them into a crucible of "forced harmony," thereby transforming history from an arena of interrogation and human agency into an icon of sanctification and legitimization.

Keywords: History; Narrative; Trope; Emplotment; Ideology; Irony.

1. مقدمة:

إن تاريخ الكتابة التاريخية هو في جوهره تاريخ تحولات الوعي البلاغي الذي يفرض به المؤرخ المعنى على الوقائع. في هذا السياق، يمثل تصور يوهان غوتفريد هردر عن التاريخ نقطة تحول حاسمة في الفكر ما بعد التنويري، إذ أسس للنزعة التاريخية والواقعية المتكاملة برفضه للنماذج الميكانيكية السائدة. يهدف هذا المقال، المعنون بهايدن وايت قارئا لهردر من الكليات العينية إلى الاستعارة العضوية، إلى تفكيك البنية العميقة لمنهج هردر التاريخي، ليس بوصفه نسخا للماضي، بل بوصفه بروتوكولا بلاغيا لغويا قابلا للإسقاط والنقد حسب هايدن وايت.

اعتمدت الدراسة على المنهج النقدي التحليلي، متخذة من أعمال هايدن وايت، وخاصة كتابه المحوري ما بعد التاريخ "الخيال التاريخي في أوروبا القرن التاسع عشر"، مرجعية أساسية لفهم العلاقة بين الترميز البلاغي والجمالي والنتائج الأيديولوجية في التأريخ. وتوسع الإطار النظري ليشمل أعمال وايت الأخرى مثل محتوى الشكل والواقعية المجازية، وأخلاقيات السرد، والماضي العملي، والخيال السردي لتعميق تحليلنا لآليات الانتقاء السردي والحبكة.

تتشكل فلسفة هردر التاريخية كاستجابة ثورية ضد ميكانيكية التنوير، حيث استعار من غوتفريد ليبنيتز مفاهيمه الميتافيزيقية ليحول التاريخ من آلة جامدة إلى كائن عضوي حي ينمو وفق قوة باطنة كامنة في ثناياه. فمن خلال استلهام فكرة المونادا الليبنيتزية صاغ هردر مفهوم روح الشعب كفردانية تاريخية فريدة لا يمكن اختزالها، معتمدا على مبدأ الاستمرارية الذي ينفي القفزات في الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

يطرح **هايدن وايت** بنية غير واعية تتكون من أربعة مستويات تتحكم في الكتابة التاريخية أهمها المستوى البلاغي كونه يحدد باقي المستويات الثلاثة التي ستبنى عليه؛ فإذا كان المجاز الذي ينطلق منه المؤرخ استعاري كانت الحبكة رومنسية والحجة صورية والايديولوجيا فوضوية، واذا كان المجاز كنائيا كانت الحبكة تراجيدية والحجة ميكانيكية والأيديولوجيا جذرية، وإذا كان المجاز مرسلا كانت الحبكة كوميدية والحجة عضوية والأيديولوجيا محافظة، وإذا كان المجاز تهكميا كانت الحبكة ساخرة والحجة سياقية والأيديولوجيا ليبيرالية، لكن هذا التناسق الشكلي بين المستويات الأربعة لم يصدق بشكل مطلق كما سنلاحظ في كتابة هردر التي كانت ذات مجاز استعاري وحبكة كوميدية وحجة عضوية وأيديولوجيا محافظة وهذه هي المفارقة الأولى التي وجدناها في دراستنا.

هذا البروتوكول السردي غير الواعي يوجه عمل المؤرخ من بدايته إلى نهايته أي من مرحلة تمييز المفردات التي يحددها المؤرخ (ملوك، ساسة، مؤسسات ....) ووضع البنى النحوية (دراسة العلاقة بين المفردات) مرورا ببنية الجملة (أي دراسة ما يحدث من تحول في هذه العلاقات) منتهيا إلى إبراز الدلالة (الصورة الكلية للتاريخ) عبر هذه المراحل تتحول الحولية إلى قصة ذات معنى لها بداية ووسط ونهاية.

ولفهم هذا التحليل البلاغي، تم إثراء الدراسة بالاستعانة بمفاهيم المدرسة السردية وما بعد البنيوية، لتبرير كيفية بناء السرد التاريخي للمعنى وكشف آليات الإقصاء والشرعنة. لذا، تم توظيف مفاهيم مركزية من بول ريكور، لتوضيح دور الحبك في ترتيب الأحداث وتأكيد أن الوحدة التاريخية هي نسق منظم ومفروض. بالإضافة إلى مفاهيم من رواد السرديات مثل رولان بارت وغيره، ليتم تحديد وظيفة السرد كشيفرة بعدية، وهي القاعدة التي تحدد كيفية تفسير الأحداث وتمنحها المعنى النهائي.

لا تقتصر الدراسة على التحليل بل تكشف عن الآليات المستمرة لتوظيف التاريخ في شرعنة الواقع القائم. من هذه الإسقاطات، تم استخراج أدوات نقدية عملية، مساعدة القارئ على تفكيك بنية الخطاب المعاصر خاصة ونحن في عصر الإعلام وصراع السرديات.

تكمن المفارقة الثانية في قراءة هايدن وايت لهردر أن هذا الأخير قام بعصيان فلاسفة التنوير هروبا من برودة السببية الميكانيكية التي حولت التاريخ إلى آلة صماء، لكنه قد انتهى به المطاف وعلى نحو غير مقصود إلى الارتماء في أحضان تهكم من نوع جديد. فبينما أراد هردر تحرير التاريخ عبر الاستعارة العضوية التي ترى في الأمم كائنات حية تنمو بفرادة

وحرية، فإنه حبس هذه الفرادة داخل قدرية بيولوجية لا تقل صرامة عن ميكانيكا التنوير. فقد استبدل هردر آلة التنوير بنباتية التاريخ، ليجد المؤرخ نفسه في نهاية المطاف عاجزا عن مساءلة الفاعلين ليغدو الصراع البشري مجرد لحظة نضج لا يمكن تغييرها.

انطلاقا من هذه الخلفية المنهجية والتحليلية، يسعى المقال للإجابة على التساؤل الجوهري التالي: كيف تحولت الرؤية التاريخية العضوية لهردر، المرتكزة على الفردانيات العينية، من محاولة فلسفية لكسر السببية الميكانيكية إلى بروتوكول بلاغي جمالي إيديولوجي يخدم الشرعية الطبقية المستقرة؟ وماهي الأدوات والمفاهيم النقدية السردية التي يمكننا صناعتها عبر هذا التحليل من أجل قراءة الخطابات المعاصرة؟

2. التحوّل البلاغي في فلسفة التاريخ "أركان الرؤية العضوية وصراع الأنماط المجازية والسردية"

إذا كان الاعتقاد السائد يرى في التاريخ سجلا وقائعيا محكوما بالسببية العقلانية، فإن القراءة البلاغية التي يقدمها هايدن وايت لمنهج هردر تكشف عن مفارقة عميقة؛ فالتاريخ ليس حقلا للماذا حدث؟ بقدر ما هو حقل لكيف نروي ما حدث؟ لقد نشأ خطاب هردر التاريخي في مواجهة مباشرة للنموذج العقلاني الذي كان يختزل الحدث إلى كناية سببية جافة، تقود حتما إلى الإدراك التهكمي لفشل العقل. هنا يطرح السؤال: كيف يمكن التخلص من عبء التهكم التاريخي دون السقوط في فخ يقينيات جديدة؟ بالنسبة إلى هايدن وايت في محاولة هردر للتحرر من التقليد التاريخي الميكانيكي، لم يستبدل منطق العلة والنتيجة بمنطق آخر، بل استبدل مجازا بآخر .لقد بنى رؤيته على مفردات العضوية والروح الموحدة، محولا الإنسان إلى كائن مزدوج تتوازى فيه الروحانية مع الإمكان. المفارقة تكمن في أن الحقيقة التاريخية لم تعد مسألة اكتشاف، بل مسألة فرض فبدلا من تحليل التناقض التركيبي للواقع، تم توظيف الاستعارة (التماهي) والحبكة الكوميدية المصالحة كآليات بلاغية قوية، تضمن الانتقال القسري من الصراع إلى الانسجام، ليصبح التنافس بين المؤرخين في النهاية صراعا على اختيار النمط الأسطوري الذي يمتلك القدرة الأقوى على تنظيم وعي الجمهور.

1.2 الرؤية العضوية والواقعية التفاؤلية: "تحول البنية السردية من الكناية إلى الاستعارة في خطاب هردر"

يعالج هردر مفاهيم مثل الانهيار كمجرد تحول ضمن سيرورة طبيعية-روحية تضمن

تحقيق التكامل النهائي للوجود. هذا التركيز على الوحدة والتكامل هو أساس ما يمكن تسميته بالواقعية التفاؤلية التي يتبناها هردر في سرديته التاريخية كرؤية عضوية للتاريخ تجعل الفرد والصنف حقيقتين متساويتين في التعبير عن قوة روحية توحد الحوادث عبر الزمن. ولتفادي التفسير السببي–التهكمي، يعالج هردر الكليات التاريخية كوقائع عينية (أمم، شعوب، ثقافات) لا كمجرد تجريدات. ووفق هذا المنظور، يصبح الموت نفسه تحولا ضمن سيرورة طبيعية–روحية تحقق التكامل النهائي للوجود (هايدن وايت، 2021، 173) يمثل هردر في قراءة هايدن وايت محاولة لتغيير البنية العميقة للكتابة التاريخية، إذ يسعى إلى تجاوز النموذج الكنائي التنويري الذي اعتمد على السببية بوصفها أداة عقلانية لإنتاج المعنى، لكنها تنتهي دائما إلى الوعي التهكمي الذي يكشف هشاشة تلك العقلانية. في المقابل، يعمل هردر على بناء علاقة جديدة بالحدث التاريخي من خلال الاستعارة العضوية والفردانية العيانية، حيث يغدو الحدث أشبه بكائن حي يفهم عبر تكامله الداخلي لا عبر موقعه في سلسلة سببية. هذا التحول، كما يلاحظ وايت، يقوض التفسير الميكانيكي ويعيد الاعتبار للكليات العينية التي ترى بوصفها وحدات ذات حياة روحية وليست مجرد مفاهيم مجردة. وهكذا تصبح الاستعارة لا الكناية الأفق البلاغي الذي يعيد للتاريخ كثافته وفرادته، ويفتح المجال أمام معنى حي يبنى بفعل الخيال المنظم لا بفعل حتميات عقلانية مغلقة. فالبداية والوسط والنهاية ليست ملامح فعل واقعي، بل هي أثر من آثار ترتيب القصيدة (بول ريكور، 2006، 75) هذا ما يعزز رؤية هايدن وايت بأن الوحدة الكلية لهذه الأمم أو السلالات ليست حقيقة عينية (وقائع) بل هي بنية منطقية-بلاغية تفرض نفسها على الأحداث. ويكشف أن بعض السرديات التاريخية عملت بالفعل وفق منطق هردري الذي يرى الوقائع حلقات داخل حياة كل أكبر.

ومن خلال هذا يمكن صياغة عدة أدوات لتطوير فهم جديد للتاريخ المعاصر. فمفهوم الكليات العينية يتيح تحليل الجماعات لا كتصنيفات مجردة بل كوقائع حية تتشكل عبر الزمن، فإن التمثيل التخييلي سيضفي طابعا شخصيا على أحداث غير شخصية، وسيجرد أحداثا وقعت بشكل محدد وعرضي من سياقها التاريخي ويعممها (Hayden white, 1996, 35) بخلاف الكليات العينية المتشكلة تاريخيا وهذا ما يدعم نقدنا لأي خطاب يمجد الروح الجامعة أو النموذج الطبيعي عبر تجريدها من فرادتها التاريخية.

ويبرز كذلك مفهوم التكامل عبر الزوال الذي يسمح بفهم انهيار الدول أو تفكك الكيانات

كحلقات انتقال لا كنهاية مطلقة فتاريخ السياسة هو في النهاية تاريخ الفشل؛ فالدول المختلفة في التاريخ تتخذ أشكالا مختلفة تأتي وتذهب، وتترك آثارا لتقلباتها. وهذا السجل في حد ذاته وبذاته لا يعلم شيئا (Hayden White, 2008, 173) هذا التتابع من الظهور والزوال يتم اعتباره هو جوهر العملية التاريخية، بدلا من أن يكون نقطة نهاية. هذا يؤكد على أن انهيار كيان (كألمانيا في خطاب هردر) هو مجرد حلقة انتقال (سيرورة تقلب) وليست نهاية مطلقة، لأن التاريخ لا يعلم شيئا ولا يكتمل. كما تقدم فكرة تجاوز ثنائية الطبيعي-الروحي إطارا لقراءة النصوص التي تمزج بين البيانات المادية والرموز الثقافية دون تعارض. وأخيرا، تسمح الاستعارة العضوية بوصف التاريخ كنسيج حي ينمو ويتحلل وينبعث، وهو ما يجعل هذه الأدوات مجتمعة قاعدة نقدية صلبة لتحليل الخطاب التاريخي وإظهار بنيته التكوينية وهذا يشير إلى أن السرد ليس شيفرة (code) بين العديد من الشيفرات الأخرى... بل هو شيفرة بعدية (metacode) ومعطى إنساني كوني يمكن على أساسه نقل الرسائل عبر الثقافات حول طبيعة واقع مشترك (هايدن وايت، 2019، 28) فالاستعارة العضوية هي تحديدا الشكل الذي تتخذه الشيفرة البعدية عند هردر. فعندما يختار هردر هذه الاستعارة، فإنه لا ينقل فقط معلومة (كود) عن الأحداث، بل ينقل قاعدة لكيفية تفسير الأحداث وتحديد معناها النهائي. هذه القاعدة تنص على "افهم كل انهيار كنمو، وكل موت كبعث" هذا النمط التفسيري (الذي يفرض التكامل) هو ما يجعل السرد ينتقل من كونه وصفا بسيطا إلى كونه شيفرة بعدية قادرة على تزويد أي مجموعة ثقافية بأساس لإعادة بناء هويتها بعد الكارثة أو التفكك، وذلك بالاعتماد على الفكرة الكونية بأن الحياة (والتاريخ) تتبع دورة عضوية متكاملة.

2.2 الإنسان المزدوج "الإمكان الروحي"

الإنسان عند هردر كائن يعيش في توتر دائم بين مستوى طبيعي محدود ومستوى روحي غير محدود، وهو ما يجعل التاريخ مجالا لصراع الإمكانات والغايات غير المتحققة لا لسيرورة ميكانيكية مغلقة. يحاصر هردر بذلك المآل التهكمي الذي ينشأ عندما يختزل العالم إلى سلسلة أسباب ونتائج، لأن الإنسان بوصفه كائنا ذا إمكانات روحية أوسع من الزمان والمكان يفتح التاريخ على احتمالات لا يمكن تفسيرها كنائيا.

الإنسان في نظر هردر يعيش عند تخوم عالمين، ويكافح لتحقيق غاية لا يقدر عليها في حياته الطبيعية وحدها. ومن ثم لا يكون التاريخ سلسلة من الضرورات، بل صراعا بين

قوى طبيعية تثقله وقوى روحية تنتظر نظاما يطلقها. بهذه الرؤية يتجنب هردر النتيجة التهكمية الملازمة للتفسير الكنائي الخالص (هايدن وايت، 2021، 174) لأن العالم يصبح عندها مجالا لا غاية فيه سوى الضرورة. هردر يتجاوز هذا المأزق عبر إقحام مستوى روحي لا يخضع للسببية، فيتحول التاريخ من خط سببي إلى فضاء يتجاور فيه الإيقاعان: إيقاع الطبيعة المغلقة وإيقاع الروح المنفتحة. بهذا يصبح التاريخ سيرورة إمكان لا سيرورة نتيجة، ويصير الحدث علامة على عدم تكافؤ قدرات الإنسان مع شروط العالم. وهذا التحول يمنح الوعي التاريخي شكلا تعريفيا جديدا: ليس فهم الماضي كتتابع، بل كشف توتر الإنسان بين واقعه المحدود وأفقه المتجاوز. وهنا يظهر ما يسميه وايت إعادة بناء العالم عبر الأسلوب، لأن هردر لا يغير المضامين بل يغير شكل النظر ذاته، فيحرر التاريخ من التهكم عبر خلق طبقة دلالية جديدة تتجاوز السبب والنتيجة دون الوقوع في الغموض الميتافيزيقي.

أن تقرأ أو تسمع سردا، لا يعني فقط أن تمر من كلمة إلى أخرى، بل أن تتجاوز المستوى إلى آخر (رولان بارت، 1988، 99) هذا ما يجسد توتر الطبيعي- الروحي، فالتحليل الوايتي يرى أن الواقعة المادية هي التتابعات الأفقية (الأحداث السببية) لكن المعنى الحقيقي والتحول الروحي-الأخلاقي لا يدرك إلا بتجاوز المستوى إلى آخر، أي بإسقاط التتابعات على محور عامودي (القيم، الإمكانات) أو ما يسميه بارت المستوى الأعلى للأعمال (رولان بارت، 1988، 121) وهذا التجاوز هو ما يحرر التاريخ من التهكم عبر خلق طبقة دلالية جديدة. من خلال هذا يمكن استخراج مجموعة أدوات تحليلية تعين على فهم الخطابات التاريخية وتفكيك منطقها الداخلي؛ إذ يتيح وعي ثنائية الطبيعة والروح التعامل مع الفاعل التاريخي بوصفه بنية مزدوجة تمنع اختزاله في دوافع مادية خالصة، فيما يكشف مفهوم اللامتحقق التاريخي عن أن الحدث ليس نتيجة منجزة بل إمكانا يتصارع مع شروطه فهل تصف العمليات التاريخية أنواع المسارات التي صادفتها التراجيديا والكوميديا؟ وهل للأحداث التاريخية، أو بعضها على الأقل، أهمية "حاسمة"؟ (Hayden white, 2010, 279).

ويضاف إلى ذلك ضرورة تحليل عمق الفاعل بما يتجاوز مستواه الظاهر إلى طبقاته القيمية والخيالية التي لا تلتقط بالسببية وحدها، فالوثيقة كثيرا ما تحمل مستوى فوق-تاريخي للمعنى يتجاوز زمن إنتاجها ويعيد تعريف الحدث من داخله ولهذا الخطاب التاريخي [السردي] هو في جوهره شكل من أشكال الصياغة الإيديولوجية، أو بتعبير أدق، صياغة

خيالية (Hayden white, 2010, 275) هذا يؤكد أن تمثيل الواقع هو عملية بلاغية لملء الفراغ في مكان الفاعل، مما يربط بشكل مباشر بين الشرعنة والخيال. وأخيرا يسمح نقد السببية اللغوية بتعرية الانزلاقات التهكمية التي تنتج حين يفرض الخطاب تاريخا مغلقا بلا غاية، فيتحول التحليل من تتبع للتسلسل إلى كشف للرؤية التي تنظم هذا التسلسل وتمنحه شكله ومعناه فالسرد هو تعبير في الخطاب عن أسلوب متميز من التجربة والتفكير في العالم، وبنياته، وعملياته (Hayden white, 2010, 274).

3.2 صراع الحبكات السردية في تنظيم الوعي التاريخي: "النزوع الأسطوري الكوميدي"

إن الانتقال إلى هردر لم يكن مجرد خلاف حول منهج في قراءة التاريخ، بل كان تحولا في البنية العميقة التي تنظم الوعي التاريخي نفسه. فهردر، على الرغم من إدراكه المحوري لمفهوم التغير، بقي أسيرا لثنائية (الطبيعة/الروح)، ولتصور يجعل كل مرحلة تاريخية عالما مغلقا على نفسه يفترض فيه الانسجام حتى حين يصفه هو نفسه بالتناقض. وتحت هذا الضوء لم ير هردر أن الخطة الكوميدية تقتصر على الدراما التاريخية في كليتها، بل اعتبر كل فصل منها كوميديا مصغرة... ومع ذلك فإن هذا الوصف للوجود التاريخي كتناقض ينكر ضمنيا ما كرره كثبات (هايدن وايت، 2021، 176) يكشف هذا التوتر، بحسب وايت، عن نزعة صورية تدفع هردر إلى إعادة بناء التاريخ داخل نموذج أسطوري لا يفسر التناقض بل يلغيه عبر افتراض الانسجام الشامل؛ ومن منظور هايدن وايت يمكن فهم هذا الخلاف كصراع بين الحبكات في تنظيم المعنى: هردر الذي يميل إلى مخيلة الطوبى الكوميدية التي تغلق كل حدث على هدف توافقي. فالنثر هو الذي يأتي ليحل محل ما كان ويقوم مخيال حيث ترتقي الصداقة بل والعلاقة بين الاخوة الى مستوى الأسس الجديدة تؤسس من جديد على نسيان العصيان (بول ريكور، 2009، 656) يصف هذا النص آلية الحبكة الكوميدية التي تحول الفوضى (العصيان-المأساة) إلى النظام والتوافق (الأخوة والصداقة-المخيال المدني). فالنص يحاول فرض هذا المخيال المدني عبر نثر موحد ليحل محل مأساة الشهادات الفردية (تناقض الضحايا والجناة). ويعزز هذا طرح هايدن وايت الذي يركز على أن العملية هي استبدال بلاغي من شكل سردي تراجيدي-جدلي (الماضي الصادم) بشكل كوميدي توافقي (المستقبل المرجو) وهذا ما يؤكد حجة وايت كذلك بأن الصراع الحقيقي هو صراع الحبكات التي تفرض على المادة التاريخية. والوثيقة نفسها تظهر حدود مقاربة تشبه نزعة هردر: كل سردية فردية تبدو عالما مغلقا، لكن السلطة

تحاول تحويلها قسرا إلى جزء من كليات منسجمة، رغم أن مضمون الشهادات يقاوم هذا الاندماج.

ومن هذا التوتر تتولد أدوات نقدية جديدة مستمدة من قراءة وايت كضرورة الكشف عن نوع الحبكة التي تفرضها المؤسسات على المادة الوثائقية؛ فإن اقتراحه لحبكة قصة الدفاع عن الجبهة الشرقية لم ينتهك أيا من الأعراف التي تحكم كتابة التاريخ السردي المحترم مهنيا (Hayden white, 1996, 32) حيث يكشف وايت أن المؤسسات الأكاديمية التي تضع أعراف الكتابة يمكن أن تفرض حبكة أخلاقية مثل حبكة الكوميديا لتمجيد جزء من النازية. هذا ما يبرر مهمتنا في الكشف عن الحبكة التي تفرضها المؤسسات لأنها قد تكون معيار النزعة الواقعية المشرعنة لديها.

كذلك اختبار الفروض القبلية التي تسقط الانسجام على وقائع مضطربة؛ فالصراع بين السرديات المتنافسة لا يتعلق بالوقائع قيد البحث بقدر ما يتعلق بالمعاني القصصية المختلفة التي يمكن إكسابها للحقائق عن طريق الحبكة (Hayden white, 1996, 29) وهذا ما يؤكد أن الاختلاف يكمن في المعاني القصصية الناتجة عن الحبكة وهي التي تعكس الفروض القبلية للمؤرخ مثل فرض الانسجام الكوميدي لهردر وعلى هذا الأساس ينبغي أن تتوجه انتقاداتنا إلى معقولية المعنى المفروض وليس إلى دقة الحقائق.

إضافة إلى مراقبة كيفية تحول التناقض من معطى في الحدث إلى عنصر يعاد تشكيله لغويا في الخطاب؛ فالتأثر الناتج عن هذه الإضافات هو تضليل موضوع الحدث ومن ثم تقليصه، وعبر تأكيد إمكانية وجود منظورات مجازية بديلة يؤكد الكاتب على أن عملية التمثيل وذاته هما جزء من التمثيل (Hayden white, 1996, 35) وايت يشرح كيف أن المجاز يضيف عناصر لغوية تضلل الموضوع، حيث يعاد تشكيل التناقضات كمنظورات بديلة، مما يقلص من جوهر الحدث الذي قد يكون تناقضا لا يقبل الحل.

ويوسع هايدن وايت تحليل التاريخ ليشمل البنية البلاغية التي تنتج المعنى، لا الوقائع فحسب فإن الروايات السردية لا تتكون من بيانات وقائعية (قضايا وجودية مفردة) وحجج فحسب، بل تتكون أيضا من عناصر شعرية وبلاغية تتحول بها ما قد يكون مجرد قائمة من الحقائق إلى قصة (Hayden white, 1996, 28) وايت هنا يؤسس لوجود مستوى بلاغي كمكون أساسي ينتج المعنى ويحول القائمة الجافة إلى قصة وهذا ما يبرز ضرورة التوسع في تحليل التاريخ ليشمل البلاغة، وليس الوقائع فقط. بهذه الأدوات يمكن إعادة التفكير في

النصوص التاريخية المعاصرة باعتبارها عمليات تأليف سردي تخفي دائما خيارات مسبقة حول طبيعة الإنسان، اتجاه التغير، وحدود التفسير.

3. التغير كأصل تاريخي وإلغاء الفاعلية: "النمط المحافظ لتأسيس القدرية عبر الحجة العضوية"

إذا كانت الرؤية الهردرية تسعى ظاهريا إلى إزاحة النظرة الميكانيكية للتاريخ عبر إقرار التغير كمقولة أصلية ومنح كل فردانية كرامتها وشرعيتها الذاتية (كسر مبدأ الهوية) فإن القراءة النقدية تكشف عن مفارقة؛ هذا التحرر البلاغي أدى عمليا إلى أبشع صور السجن الأيديولوجي. هنا تكمن المسألة: كيف تحولت دعوة هردر لمنح كل كائن شرعيته الذاتية إلى أداة لتجاهل الفاعلية البشرية والقرارات القابلة للمساءلة؟ لقد قام هذا التحول بتأسيس الحجة العضوية على المنطق الذي يرى الحركة التاريخية كتطور طبيعي منسجم (التوازن العضوي)، مما أدى إلى صياغة الواقع كبنية تشرح ذاتها. بهذه الآلية، لم يعد المؤرخ يفسر الأحداث بل يكتشف فيها قدرية عضوية كامنة: ما يحدث هو ما يجب أن يحدث كتكيف ضروري لبيئته فالنتيجة الأخلاقية لهذا التكوين السردي كانت واضحة ومباشرة كإلغاء مساءلة الفاعلين السياسيين لصالح التبرير القدري للوقائع، ودعم الشرعية الراهنة ضمن النمط المحافظ الذي يجد راحته في هذا النظام الطبيعي.

1.3 التوازن العضوي للكوميديا الاشتقاقية: "التبرير القدري للوقائع وتجاهل الفاعلية البشرية"

يكشف هردر عن رؤية تجعل التاريخ مجالا لتوازن عضوي تتوافق فيه الكائنات مع أوساطها، بحيث لا يظهر شيء إلا لملاءمته لشروطه الطبيعية، ولا يزول إلا حين تستنفد تلك الشروط طاقته؛ وهي رؤية يتجلى جوهرها في قوله كل ما يمكن أن يكون كائن، وكل ما يمكن أن يأتي سيأتي؛ إن لم يكن اليوم فغدا (هايدن وايت، 2021، 179) يشير هذا إلى أن التاريخ ليس مسارا تحكمه غايات مسبقة أو قوى فوق طبيعية، بل شبكة من الإمكانات التي تتفتح حين تكتمل شروطها، ومن منظور وايت، يمكن قراءة هذا الموقف باعتباره تشكلا خطابيا ينتمي إلى نمط الكوميديا الاشتقاقية التي ترى الحركة التاريخية كتطور طبيعي منسجم، وتمنح الوقائع معنى داخل منطق العضوية لا داخل منطق السببية الصلبة؛ فالمؤرخ هنا لا يفرض على الأحداث حبكة خارجية بل يلتقط إيقاعا داخليا يربط الكائن بزمانه.

هذه الأدوات التأملية جديرة بالاعتبار لأنها تلعب دور روابط بين الزمان المعيش والزمان الكلي وتشهد من هذه الناحية، على الوظيفة الشعرية التي يقوم بها التاريخ، بقدر ما يسهم في حل معضلات الزمان (بول ريكور، 2006، 154) حيث يشير ريكور إلى أن أدوات التأريخ لا تنقل الحقائق فحسب، بل تساهم في حل معضلات الزمان التي تتمثل في التناقضات والاختلافات الحادة بين الزمن الخاص (الاختيارات البشرية المسؤولة في الازمة) والزمن الكوني (الموضوعي). وهو حل ليس بالضرورة حقيقيا بل مصاغ شعريا عبر تصويرها كتكيف تاريخي ضروري يخدم المسار الكلي هذا التكييف هو الصيغة السردية لحل المعضلة.

في هذه النقطة يتفق ريكور ووايت على أن السرد التاريخي يمتلك وظيفة تتجاوز مجرد الإبلاغ، فالوظيفة الشعرية التي نبه إليها ريكور هي ما يسميه وايت اختيار الحبكة. وهي العملية التي يتم فيها صياغة الأحداث المتفرقة في نمط سردي له معنى (تراجيدي، كوميدي، رومانسي، ساخر). فعندما يختار المؤرخ النمط الكوميدي، فإنه يقوم بحل المعضلة عن طريق التأكيد على انتصار الخير على الشر (التفكك والصراع)، هذا الحل الشعري يصنع القدرية ويجعل التفكك يبدو كجزء من عملية تطور صحية يفرضها الوسط على الكائن مما يلغي تماما مساءلة الفاعلين البشر.

غير أن نقدنا يمكن أن يبرز حدود هذه العضوية التاريخية، عبر مفاهيم مثل السياقية المضادة التي تكشف أن الانسجام الظاهري يخفي علاقات قوة غير مرئية، إذ يشير أيضا إلى كيف أن اختيار نمط حبكة يمكن أن يبرر تجاهل أنواع معينة من الأحداث، الفاعلين، الأفعال، الوكالات، والمتأثرين التي قد تسكن مشهدا تاريخيا معينا أو سياقه (Hayden white, 1996, 33) وهذا هو التعريف المثالي أيضا للسياقات المغفلة فاختيار الحبكة يمنح المؤرخ سلطة تبرير تجاهل القوى الفاعلة أو المتأثرة مما يخفي علاقات القوة غير المرئية لصالح الانسجام الظاهري وهذا يتطلب تفعيلا للسياقية المضادة لنقد هذا التجاهل.

و مفهوم الاحتمال المصنع الذي يشير إلى أن ما يحدث لأنه يمكن أن يحدث ليس نتيجة توازن طبيعي بل نتيجة هندسات سياسية وإعلامية تحول خيارات محدودة إلى قدر شامل ففي كتابة التاريخ الاستعراضي يتم تخييل الحقائق بالفعل عن طريق حرمانها من محتواها المعرفي وتحويلها إلى أصنام تشغل الدوافع والرغبات والقلق لدى الذوات التي تم تكييفها لتعيش خيالات استهلاكية تتغذى على محاكاة أشياء سامية مرغوبة بدلا من العلاقات

الحقيقية (Hayden White, 2010, 69) وهكذا يتبين أن تصوير التاريخ كنظام متوازن لا نهائي كما يفعل هردر، يظل خطابا يعيد تشكيل الفوضى بما يمنحها هدوء وهميا، بينما تكشف القراءة النقدية المستنيرة بأدوات وايت أن هذا النظام نفسه اختيار سردي لا خاصية موضوعية للتاريخ.

2.3 الحجة العضوية والتاريخ كنظام طبيعي: "البنية الشارحة الذاتية للوقائع"

يقدم هردر تصورا يعتبر التاريخ امتدادا لناموس طبيعي واحد، حيث تعمل كل عناصر الوجود داخل شبكة ترابط تجعل كل كائن ملائما لوسطه وزمانه وهو يرفض إصدار الأحكام الأخلاقية على الشعوب أو الحضارات، لأن ما يبدو شرا أو انحطاطا يضمحل بقوة شروطه الداخلية لا بسبب حكم خارجي عليه وبهذا يعمم فكرة أن الفاعلين الكبار والصغار، الرومان والمتوحشين، جميعهم يتطورون وفق قانون واحد ما لا يستطيع البقاء يزول، وما يمتلك قابلية الاستمرار يستمر. ويرجع هردر هذا التنظيم إلى سيرورة داخلية لا إلى عناية فوقية أو غاية خارجية، ويؤكد أن التاريخ مثل الطبيعة ليس اعتباطيا ولا غائيا، بل محكوم بتفاعل العناصر التي تمنح كل ظاهرة شكلها فكل ما هو قابل للهلاك هلك، وكل ما يستطيع الدوام بقي... لا شيء وجد من أجل أي شيء آخر، بل كل شيء هو جزء من الكل لا غنى عنه؛ قانون الكل هو القاعدة الحاكمة للجزء (هايدن وايت، 2021، 180) هذا ما يلخص تصوره بأن التاريخ بنية عضوية مغلقة يحكمها قانون داخلي لا يقبل التقييم الخارجي ولا يسمح بتمييز هرمي بين الظواهر.

من منظور وايت، هذه الرؤية تمثل تشكلا سرديا ينتمي إلى نمط الحجة العضوية وهو سرد يفسر التاريخ باعتباره نموا طبيعيا يتضمن انسجاما داخليا وتوزيعا ذاتيا للطاقات. لا يرى هردر أن السجل التاريخي يتطلب حبكة مفروضة من المؤرخ، بل إن الوقائع تحمل بنيتها التفسيرية في ذاتها، وهو ما يمنح خطابه طابعا استعاريا يعيد صياغة الفوضى التاريخية في صورة تماسك داخلي لكن وايت يكشف أن هذا التماسك ليس خاصية للواقع بل خيار بلاغي يوجه المؤرخ نحو قراءة لا ترى في الأحداث عنفا أو تصادما بنيويا، بل عمليات تطورية متوازنة، وهو ما يجعل السرد الهردري يخفف من حدة الصراع ويحول التاريخ إلى نظام طبيعي، في حين أنه نتاج اختيار جمالي قبل أن يكون نتيجة استدلال علمي. فالمغزى الضمني هو أن المؤرخين يكونون موضوعاتهم كأشياء محتملة للتمثيل السردي، وذلك من خلال اللغة ذاتها التي يستخدمونها لوصفها (Paul Herman, 2011, 89) هنا تتوضح الآلية

الجوهرية للخطاب الهردري في تبرير الأزمات ففي حالة انهيار الدول يتم تشكيل الموضوع عبر لغة تقول بتفكك طبيعي لبنية قبلية لم تتطور؛ هذه اللغة لا تعكس الواقع، بل تنشئ الموضوع باعتباره كيانا محكوما بناموس طبيعي داخلي أو شروط عضوية غائبة، مما يجعل الانهيار نتيجة حتمية تكوينية وبموجب هذا التكوين اللغوي، يعاد صياغة الصراع العنيف باعتباره مجرد استجابة طبيعية لوسط داخلي غير مكتمل النمو، وهو ما يخدم سردية الانسجام والقدرية التي تنتجها الحجة العضوية.

فالحبكات لا تقدم إجابات لأسئلة مثل ماذا حدث بعد ذلك؟ أو كيف حدث ذلك؟ بل توفر بصيرة في جوهر الأمر كله، ولا يحدث هذا إلا إذا أدرك القارئ كيف ترابط مجموعات الزخارف/ الوحدات الموضوعية في القصة ببعضها البعض (Paul Herman, 2011, 86) هذا ما يتجسد في السرد الذي يصف سقوط النظام كنضج اجتماعي محتوم؛ حيث يقفز الخطاب مباشرة إلى هذه البنية الشارحة الذاتية التي تزعم أن كل الأحداث كانت تهدف إلى هذه النتيجة الضرورية. وبتأكيدها على هذه البصيرة الواحدة التي تقول بالضرورة والانسجام (الحجة العضوية)، فإن الحبكة تلغي الحاجة إلى تحليل علاقات القوة والخيارات الصراعية المتعددة، وتفرض قراءة تظهر الوقائع وكأنها تفسر نفسها بنفسها ضمن مسار طبيعي مكتمل لا يقبل المساءلة.

فإذا ما نظر إلى الأعمال التاريخية على أنها مصنوعات لغوية فحسب، فإنها تشبه القصائد والروايات في استخدام اللغة المجازية لغرض تكوين الحقائق التي تناسب شكل قصة معينة (Paul Herman, 2011, 90) حيث لا تهدف هذه السرديات إلى وصف الواقع المحايد (الصراع والعنف)، بل إلى صياغة الحقائق (الشهادات والأحداث) لتناسب النمط العضوي المطلوب، وهو مسار ذاتي للإصلاحات. وبما أن هذا الشكل القصصي يركز على الانسجام والنمو الداخلي، فإنه يفرض السياقات المغفلة، إذ لا يمكن لسردية الإصلاح أن تستوعب العنف البنيوي أو القوى المضادة كجزء مركزي. وهكذا، يتحقق الحل البلاغي لمشكلة العرض، حيث يتم جعل الواقع متماسكا ضمن قالب الانسجام العضوي على حساب إقصاء جوانب الصراع والمساءلة. هذا ما يظهر كيف يعاد إنتاج خطاب الملاءمة الطبيعية الذي يفسر الأحداث كنتائج لشروطها الداخلية، على غرار رؤية هردر.

إن هذا الخطاب التاريخي، يمكننا من إدخال مفاهيم جديدة مثل الاحتمال المسير الذي يكشف كيف تقدم النتائج وكأنها طبيعية بينما هي ثمرة اختيارات سياسية فالسرد

المسرحي يحول الأفراد من فواعل قادرين على الفعل، إلى مجرد مرضى/خاضعين لقوى تاريخية ضخمة (Hayden white, 2010, 277) وهذا ما يزيل الاختيار لصالح الحتمية.

والسياقات المغفلة التي تقصي القوى الفاعلة لصالح سردية الانسجام، بدلا من كونها مجرد طريقة أو إجراء لإنتاج الاوصاف التاريخية للأشياء والاحداث الماضية، هي المنهج بامتياز للإيديولوجيا المسماة النزعة التاريخية (Hayden White, 2010, 67) هذا يمنحها سطلة إقصاء أي قوى فاعلة لا تتناسب مع حدود السياق المختار، ما يبرر إنشاء السياقات المغفلة لخدمة سردية ما.

والبنية الشارحة الذاتية التي تجعل الأحداث تبدو وكأنها تفسر نفسها دون الحاجة إلى تحليل علاقات القوة فكم من خطاب يتظاهر بجعل العالم يتكلم هو نفسه ويتكلم هو نفسه كقصة (هايدن وايت، 2019، 30) ويمكن استعمال أدوات مثل تحليل الاستعارات المكونة التي تحدد كيف تبنى العضوية والتوازن في النص التاريخي، إنه هيرودوت يحل مشكلة العرض بلاغيا، عبر تبني شكل تلك الأساطير (الحبكات، القصص) الموروثة من الماضي الهلنستي كأوعية مناسبة لسرد أفعال الآلهة والأبطال (Hayden White, 2008, 177) هذا يوضح أن الشكل (أي الحبكة الأسطورية المجازية)، يتم استخدامه كوعاء مناسب لفرض وحدة على الوقائع. ففي خطاب هردر، يتم استخدام استعارة العضوية أو التوازن كشكل أسطوري مكون لفرض وحدة تشابهية على الأحداث. وايت يكشف أن هذه الوحدة ليست منطقية (بمعنى ليست حلا مفاهيميا) بل هي حل بلاغي لمشكلة العرض والتقديم.

وتحليل صمت الوثيقة لمعرفة ما تخفيه دعوى الملاءمة فإن أكثر الصيغ تطرفا لهذه الفكرة تأخذ شكل المألوف القائل بأن هذا الحدث أو الحل النهائي، إلخ ... ذو طبيعة تفلت من قبضة أي لغة لوصفه أو أي وسيط لتمثيله (Hayden white, 1996, 33) هذا ما يجبرنا على التفكير في صمت الوثيقة، فإذا كان الحدث يفلت من الوصف، فما هي الملاءمة التي يدعيها المؤرخون؟ ويجبرنا كذلك على مساءلة خطاب هردر ما الذي يخفيه إصراره على ملاءمة الحبكة الكوميدية لحدث تاريخي؟ وهل هو محاولة للتغلب على الصمت بفرض نهاية سعيدة؟ أما بالنسبة إلى حدود تحليل هردر فهو يخضع التاريخ لنموذج طبيعي يجعل الصراع طارئا وغير بنيوي، ويحول العنف السياسي إلى مجرد مرحلة زوال، ويمنح الوقائع طابع الضرورة دون مساءلة القوى التي صنعتها وهذا ما يجعل رؤيته رغم انسجامها عاجزة

عن تفسير البنى السلطوية التي تنتج الأحداث لا تلك التي تتكيف معها.

4. الخاتمة:

لقد كشفت هذه الدراسة عن مسار التحول الدرامي للرؤية الهردرية؛ فبعد أن ولدت كصرخة تمرد فلسفية لكسر آلية التنوير واستعادة الفردانية العينية، انتهى بها المطاف كبروتوكول بلاغي أيديولوجي شديد الاحكام. إن هذا التحول لم يكن صدفة تاريخية، بل كنتيجة لقوة الحبكة الكوميدية التي تمنح الأنظمة المستقرة شرعية طبيعية تجعل من الواقع القائم ثمرة ناضجة لنمو عضوي لا يمكن رده. لقد استغلت سلطة الخطاب جمالية الانسجام لتغطية بشاعة الصراع، محولة التاريخ من ساحة للمساءلة إلى أيقونة للتقديس.

فالرؤية العضوية تتجلى اليوم عبر الحكاية المجملة وإدارة الحذف؛ حيث يتم القفز فوق تمزقات الأحداث لإنتاج حضور أيديولوجي مكثف يخدم الطبقات المهيمنة.

وتمكننا عبر هذا التحليل من صياغة تفكيكية تعتمد على رصد المجاز من خلال التمييز بين الاستعارة العضوية المشرعنة والكناية الأرشيفية المفتوحة. وتتبع حدود التحقيق في الخطاب الرسمي وما يتم إقصاؤه خلف ستار الانسجام، ومراقبة متى يتم التسريع للإخفاء ومتى يتم التشخيص لأسطرة البطل.

بهذا لا تنتهي الدراسة عند حدود الطرح، بل تفتح أفقا جديدا لإعادة كتابة التاريخ بوعي نقدي يرفض القدرية المحتومة ويستعيد صوت الفردانيات المهمشة التي دهست تحت عجلات النمو العضوي المقدس.

المصادروالمراجع:

1- بارت، رولان. 1988 .النقد البنيوي للحكاية .ترجمة: أنطوان أبو زيد. بيروت-باريس: منشورات عويدات.

2- ريكور، بول. 2006. الزمان والسرد: الحبكة والسرد التاريخي، الجزء الأول. ترجمة: سعيد الغانمي وفلاح رحيم؛ راجعه عن الفرنسية: جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

3- ريكور، بول. 2006. الزمان والسرد: التصوير في السرد القصصي، الجزء الثاني. ترجمة: فلاح رحيم؛ راجعه عن الفرنسية: جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

4- ريكور، بول. 2009. الذاكرة، التاريخ، النسيان. ترجمة: الدكتور جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.

5- وايت هايدن، ما بعد التاريخ، "الخيال التاريخي في أوربا القرن التاسع عشر "، ترجمة شريف يونس، الطبعة الأولى 2021، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

6- وايت هايدن، محتوى الشكل، "الخطاب السردي والتمثيل التاريخي" ترجمة د. نايف الياسين، الطبعة الثانية 2019، هيئة البحرين للثقافة والآثار، مطبعة كركي، بيروت.

7- Paul, Herman. 2011. Hayden White: The Historical Imagination. Cambridge: Polity Press.

8- White, Hayden. 1996. Figural Realism: Studies in the Mimesis Effect. Baltimore: Johns Hopkins University Press.

9- White, Hayden. 2008. The Ethics of Narrative: Essays. Stanford, CA: Stanford University Press.

10- White, Hayden. 2010. The Fiction of Narrative: Essays. Stanford, CA: Stanford University Press.

11- White, Hayden. 2010. The Practical Past. Edited by E. R. V. K. T. Ankersmit. Evanston, IL: Northwestern University Press.